مجموعة القصص الدينية

باشراف محمد أحمد برانق



١٥

العزير وحماره

دار المعارف بمصر

مجموعة القصص الدينية

بإشراف
محمد أحمد برانق
كبير مفتشى التربية الدينية
بوزارة التربية والتعليم (سابقاً)

١٥

العَزير وَحِمارُه

الطبعة الخامسة

دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

١

تَوَلَّى دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلْكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ جَالُوتُ مَلِكَ الْعَمَالِيقِ ، وَهَزَمَهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ . وَكَانَتْ أَيَّامُ دَاوُدَ خَيْرًا وَبَرَكَةً وَقُوَّةً وَمَنَعَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَآتَاهُ اللَّهُ مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، فَحَكَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعَدْلِ ، وَأَجْرَى اللَّهُ لَهُمُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ . . . وَكَانَتْ عَاصِمَةُ مُلْكِهِ مَدِينَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوِ الْقُدْسِ .

وَبَعْدَ انْقِضَاءِ أَيَّامِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ انْغَمَسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَلَاذِّ ، وَنَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ ، وَجَنَحُوا إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، فَفَسَدُوا وَأَفْسَدُوا . . .

وَكَانَ لَهُمْ نَبِيٌّ صَالِحٌ اسْمُهُ أَرْمِيَا ، تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالنُّصْحِ ، وَوَعَظَهُمْ ، وَأَنْذَرَهُمْ سُوءَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . .

وَكَانَ مِمَّا ذَكَرَهُ لَهُمْ أَنَّ اللهَ بَيَّنَ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ

سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَسَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .. فَإِذَا أَفْسَدُوا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى سَاقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ جُيُوشًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَفَتَحُوا الْبِلَادَ، وَجَاسُوا خِلَالَهَا، وَقَتَلُوا شُبَّانَهَا، وَسَبَوْا نِسَاءَهَا وَأَطْفَالَهَا، وَهَدَمُوا الْمَسَاكِنَ، وَأَتْلَفُوا الزُّرُوعَ وَتَرَكُوهَا خَرَابًا .

وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا سَمِعُوا نُصْحَهُ هَزِئُوا بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ يَعِظُهُمْ، وَيَزْجُرُهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ، فَضَاقُوا بِهِ وَآذَوْهُ وَزَجُّوا بِهِ إِلَى أَعْمَاقِ سِجْنٍ مُظْلِمٍ .

٢

وَكَانَ فِي مَمْلَكَةِ بَابِلَ فِي هٰذَا الْوَقْتِ مَلِكٌ قَوِيٌّ. فَأَرْسَلَ جَيْشًا مُؤَلَّفًا مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، لِيَكْشِفُوا لَهُ بِلَادَ الشَّامِ، وَلِيُقَاتِلُوا إِنِ اسْتَطَاعُوا. وَكَانَ مَعَ الْجَيْشِ فَتًى شَابٌّ اسْمُهُ بُخْتَنَصَّرُ لَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنَ الْقَادَةِ وَالزُّعَمَاءِ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ...

نَزَلَ الْجَيْشُ بِسَاحَاتِ بِلَادِ الشَّامِ، فَرَأَى بِهَا أَهْلَهَا عِظَامَ الْأَجْسَامِ، حِسَانَ الْهَيْئَةِ، يَدُلُّ مَظْهَرُهُمْ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ، فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ، وَخَيْرٍ وَفِيرٍ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةٍ؛ فَوَقَعَتْ هَيْبَتُهُمْ فِي نُفُوسِ قُوَّادِ الْجَيْشِ الْبَابِلِيِّ، فَأَقَامُوا مُدَّةً لَا يَشُنُّونَ حَرْبًا، وَلَا يَخُوضُونَ مَعْرَكَةً. وَفِي هٰذِهِ الْأَثْنَاءِ اسْتَطَاعَ الشَّابُّ بُخْتَنَصَّرُ أَنْ يَتَسَلَّلَ إِلَى دَاخِلِ الدِّيَارِ، وَأَنْ يُخَالِطَ السُّكَّانَ، وَيَغْشَى مَجَالِسَهُمْ، وَيَتَعَرَّفَ أَحْوَالَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ، وَعَجْزٍ عَنْ مُقَاوَمَةِ مَنْ يَغْزُوهُمْ.. وَأَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ قَائِدَ الْجَيْشِ بِذٰلِكَ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، فَحَدَّثَ بِهِ بَعْضَ

مَنْ حَوْلَه ، فَسَخِرُوامِنْهُ ، وَلَمْ يَسْتَمِعُوا لَهُ .

وَعَادَ الْجَيْشُ إلَى أَرْضِ بَابِلَ دُونَ فَائِدَةٍ ، وَقَصَّ الْقُوَّادُ عَلَى الْمَلِكِ مَا رَأَوْهُ مِنْ قُوَّةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَمَا زَالُوا بِالْمَلِكِ حَتَّى صَرَفُوهُ عَنْ غَزْوِ الشَّامِ .

أَمَّا بُخْتَنَصَّرُ فَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَّصِلَ بِبَعْضِ خَدَمِ الْمَلِكِ وَقَالَ لَهُ : لَوْ دَعَانِي الْمَلِكُ لَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ الصَّحِيحَ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرَهُ لَهُ الْقُوَّادُ .

فَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ اسْتَدْعَى بُخْتَنَصَّرَ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ الْقُوَّادَ اكْتَفَوْا بِرُؤْيَةِ ظَوَاهِرِ أَهْلِ الشَّامِ فَهَابُوهُمْ ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ تَسَلَّلْتُ إِلَى مَجَالِسِهِمْ وَخَالَطْتُهُمْ ، وَعَرَفْتُ ضَعْفَهُمْ ، وَسَمِعْتُ مِنْهُمْ خَوْفَهُمْ مِنَ الْجَيْشِ ، وَعَجْزَهُمْ عَنِ الْقِتَالِ ... وَبَعْدَ مُدَّةٍ قَالَ الْمَلِكُ : مَا ضَرَّنَا لَوْ بَعَثْنَا جَيْشًا إِلَى الشَّامِ،فَإِنْ وَجَدَ سَبِيلًا إِلَى النَّصْرِ قَاتَلَهُمْ وَإِلَّا جَاءُوا بِمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ.

قَالَتِ الْحَاشِيَةُ : لَا بَأْسَ مِنْ ذَلِكَ .

فَقَالَ الْمَلِكُ : وَمَنْ تُشِيرُونَ بِهِ لِيَكُونَ قَائِدًا لِلْجَيْشِ ؟

قَالُوا : نُشِيرُ بِفُلَانٍ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْقَادَةِ الْمَعْرُوفِينَ .

قَالَ الْمَلِكُ : لا نَخْتَارُ إلاَّ بُخْتَنَصَّرَ الَّذِى أَخْبَرَنِى عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِمَا أَخْبَرَنِى بِهِ . . . خَرَجَ بُخْتَنَصَّرُ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ إِلَى الشَّامِ ،فَخَافَهُ أَهْلُ دِمَشْقَ ، وَطَلَبَ مَلِكُهُمُ الصُّلْحَ ،وَقَدَّمَ لِبُخْتَنَصَّرَ أَمْوَالاً كَثِيرَةً ، وَجَوَاهِرَ ثَمِينَةً ، فَقَبِلَ مِنْهُ وَخَلَّى عَنْ بِلادِهِ . . .

وَتَرَكَ دِمَشْقَ ، وَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، عَاصِمَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ عَاقِلٌ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَخَرَجَ إِلَى بُخْتَنَصَّرَ ، وَقَدَّمَ لَهُ الطَّاعَةَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ الصُّلْحَ ، وَالْأَمَانَ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ مَا أَرْضَاهُ . . وَطَلَبَ بُخْتَنَصَّرُ بَعْضَ الْأَعْيَانِ لِيَكُونُوا رَهَائِنَ عِنْدَهُ ضَمَانًا لِاسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ ، وَعَدَمِ التَّمَرُّدِ . . .

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمَّا نَزَلَ بُخْتَنَصَّرُ أَرْضَهُمْ فَزِعُوا ، وَتَفَرَّقُوا ، وَأَغْلَقُوا دُورَهُمْ عَلَيْهِمْ ؛ فَلَمَّا صَالَحَهُ الْمَلِكُ ، وَأَعْطَاهُ الرَّهَائِنَ ، وَجَلَا عَنِ الْبِلَادِ بِجَيْشِهِ ، خَرَجُوا مِنْ جُحُورِهِمْ يَلُومُونَ الْمَلِكَ عَلَى الصُّلْحِ ، وَيُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى

قِتَالِ الْعَدُوِّ ، وَإِنْزَالِ الْهَزِيمَةِ بِهِ ، وَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ قَتَلُوا الْمَلِكَ ، وَنَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَ بُخْتَنَصَّرَ . . .

وَعَلِمَ بُخْتَنَصَّرُ بِمَا حَصَلَ فَعَادَ بِجَيْشِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَتَحَصَّنَ بِهَا أَهْلُهَا ، فَحَاصَرَهَا حِصَارًا شَدِيدًا ، وَأَخَذَ يَدُكُّ أَسْوَارَهَا بِمَا يَقْذِفُهَا بِهِ مِنَ الْمُدَمِّرَاتِ حَتَّى تَهَدَّمَتْ ، وَتَدَفَّقَ جَيْشُهُ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ، فَأَعْمَلُوا السُّيُوفَ وَالْحِرَابَ فِي كُلِّ مَنْ لَقُوهُ مِنَ الْأَهْلِينَ حَتَّى أَفْنَوْا خَلْقًا كَثِيرًا .. وَانْطَلَقَتْ فَيَالِقُ الْبَابِلِيِّينَ إِلَى سَائِرِ الْقُرَى الْإِسْرَائِيلِيَّةِ فَصَارُوا يُخَرِّبُونَ الدُّورَ ، وَيُتْلِفُونَ الزُّرُوعَ ، وَيَقْتُلُونَ أَوْ يَأْسِرُونَ كُلَّ مَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ . . . حَتَّى خَرِبَتِ الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتِ الْأَرْضُ ، وَكَثُرَتِ الدِّمَاءُ ، وَتَنَاثَرَتِ الْأَشْلَاءُ .

وَتَمَكَّنَ فَرِيقٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْهَرَبِ ، فَلَجَأَ بَعْضُهُمْ إِلَى مِصْرَ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى يَثْرِبَ وَآخَرُونَ إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى . . . وَبَقِيَ بُخْتَنَصَّرُ فِي الْبِلَادِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ حَتَّى خَرَّبَ كُلَّ شَيْءٍ بِهَا ، وَهَدَمَ مَسَاجِدَهَا

وَمَعَابِدَهَا ، وَأَحْرَقَ كُلَّ مَاوَقَعَ لَهُ مِنْ نُسَخِ التَّوْرَاةِ . . . ثُمَّ عَرَضَ الْأَسْرَى ، فَقَتَلَ مِنْهُمُ الشَّبَابَ الْقَادِرِينَ عَلَى حَمْلِ السِّلَاحِ ولَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا . . أَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ فَاسْتَبْقَاهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمُ الْعَبِيدُ وَالْخَدَمُ لِأَهْلِ بَابِلَ ، وَذَكَرَ بَعْضُ كُتُبِ التَّارِيخِ أَنَّ الْغِلْمَانَ وَحْدَهُمْ بَلَغَ عَدَدُهُمْ تِسْعِينَ أَلْفًا .

وَغَادَرَ بُخْتُنَصَّرُ أَرْضَ إِسْرَائِيلَ ، وَتَرَكَهَا مُخَرَّبَةً مُدَمَّرَةً لَيْسَ فِيهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَمِّرَ شَيْئًا . . وَسَاقَ أَمَامَهُ السَّبْيَ وَالْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ ، وَكُلَّ مَا اسْتَطَاعَ حَمْلَهُ مِمَّا تَرَكَهُ أَهْلُهَا . . فَلَمَّا بَلَغَ بَابِلَ اسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا بِالْإِكْبَارِ وَالْإِكْرَامِ ، وَنَصَبُوا لَهُ الزِّينَاتِ ، وَأَقَامُوا لَهُ الْأَفْرَاحَ . . . فَفَرَّقَ فِيهِمُ السَّبْيَ وَالْمَالَ حَتَّى امْتَلَأَتْ دُورُهُمْ مِنْ صِبْيَانِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَنِسَائِهِمْ .

وَهٰكَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) .

٣

أَقَامَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ بِأَرْضِ بَابِلَ ، وَكَثُرُوا بِهَا وَتَنَاسَلُوا ، وَكَانَتْ نُفُوسُهُمْ تَحِنُّ إِلَى أَوْطَانِهِمْ وَالرُّجُوعِ إِلَى عِمَارَتِهَا . وَلٰكِنَّ مُلُوكَ بَابِلَ كَانُوا قَدْ أَسَّسُوا سِيَاسَتَهُمْ عَلَى أَلَّا يُمَكِّنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْحَيَاةِ الْحُرَّةِ ، وَكَانَ مِنْ صِبْيَانِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ سَبَاهُمْ بُخْتَنَصَّرُ صَبِيٌّ اسْمُهُ عُزَيْرٌ مِنْ نَسْلِ نَبِيِّ اللهِ هٰرُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لِهٰذَا الْوَقْتِ مَنْ يَحْفَظُ التَّوْرَاةَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ سِوَى عُزَيْرٍ هٰذَا ، فَإِنَّ أَبَاهُ وَجَدَّهُ كَانَا يَحْفَظَانِهَا . . .

وَشَبَّ عُزَيْرٌ فِي أَرْضِ بَابِلَ وَهُوَ كَارِهٌ لِحَيَاةِ الذُّلِّ وَالضِّيقِ . . . يَمْلَؤُهُ الْأَسَى وَالْهَمُّ لِمَا يَلْقَاهُ بَنُو قَوْمِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْهَوَانِ . . . وَكَانَ صَالِحًا وَرِعًا يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، وَيَعِظُ النَّاسَ ؛ فَأَحَبَّهُ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ وَالْبَابِلِيُّونَ عَلَى السَّوَاءِ

لِاسْتِقَامَتِهِ ، وَحُسْنِ سِيرَتِهِ ، وَصِدْقِ نَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ . . وَكَانَ لا يَدْعُو لِأَحَدٍ بِخَيْرٍ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ . . .

وَتَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ الْبَنِينَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيَخْرُجُونَ أَيْضًا ، وَيُعِيدُونَ عِمَارَةَ بِلَادِهِمْ . . .

وَكَانَ عُزَيْرٌ عَاقِلاً حَكِيماً فَلَمْ يَبُحْ بِهَذَا الْوَحْيِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَخَافَةَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ بِسَبَبِهِ شَرٌّ ، وَأَخَذَ مَعَ الْأَيَّامِ يَشْعُرُ بِأَنَّ حَوَافِزَ قَوِيَّةً فِي صَدْرِهِ تَحْفِزُهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَابِلَ إِلَى حَيْثُ وَعَدَهُ اللهُ بِعِمَارَةِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ . . . وَقَوِيَتْ تِلْكَ الْحَوَافِزُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّى لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ مَعَهَا فِي بَابِلَ وَرَأَى أَنْ لَا مَفَرَّ مِنَ الْخُرُوجِ ، وَلَكِنْ مَاذَا يَصْنَعُ بِزَوْجَتِهِ ، وَبَنِيهِ ، وَخَادِمَتِهِ الْوَفِيَّةِ الْأَمِينَةِ . . ؟

أَيَأْخُذُهُمْ مَعَهُ ؟ وَهَلْ يَغْفُلُ جُنْدُ الْمَلِكِ عَنْهُمْ ؟

وَجَمَعَ عُزَيْرٌ زَوْجَتَهُ ، وَبَنِيهِ ، وَخَادِمَتَهُ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي ، بَعْدَ أَنْ أَوَى النَّاسُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَانْقَطَعَتِ الْحَرَكَاتُ مِنَ الطُّرُقِ

وَالشَّوَارِعِ وَقَالَ لَهُمْ : لَقَدْ أَزْمَعْتُ اللَّيْلَةَ عَلَى الرَّحِيلِ !!!

قَالَتِ الزَّوْجَة : إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ عُزَيْرٌ : إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ... إِلَى أَرْضِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ . . .

وَهُنَا ارْتَاعَتِ الزَّوْجَةُ ، وَذَهَلَ الأَبْنَاءِ ، وَعَجِبَتِ الْخَادِمُ .

وَقَالَتِ الزَّوْجَةُ : مَاذَا بِكَ يَا عُزَيْرُ ؟ ! كَيْفَ تَذْكُرُ ذٰلِكَ أَوْ تُفَكِّرُ فِيهِ وَأَنتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يَذْكُرُ تِلْكَ الْكَلِمَةَ يُقْتَلُ مِنْ فَوْرِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ يُقْبَضُ عَلَيْهِ وَهُوَ فَارٌّ ؟ هَلْ نَسِيتَ أَنَّ صَدْقِيَا ابْنَ عَمِّكَ قُتِلَ مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لِأَنَّ رَجُلًا بَابِلِيًّا سَمِعَهُ يَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ ؟

قَالَ عُزَيْرٌ : لَا بُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ .

قَالَ ابْنُهُ الأَكْبَرُ: أَبَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً تَذْكُرُ الْعَوْدَةَ يَا أَبَتِ !

قَالَ عُزَيْرٌ : وَبَعْدَ مِائَةٍ . . . لَا بُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ . قَالَتِ الْخَادِمُ : وَمَاذَا تَصْنَعُ هُنَالِكَ وَحْدَكَ يَاسَيِّدِي وَالْبِلَادُ خَرَابٌ وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يُؤْنِسُكَ !

قَالَ عُزَيْرٌ: يُؤْنِسُنِي اللهُ .. وَتُؤْنِسُونَنِي أَنْتُمْ بَعْدَ أَنْ تَلْحَقُوا



عزير وزوجته وابنه وخادمته يتحدثون

بِى...وَيُؤْنِسُنِى بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَيْهَا وَيَعْمُرُوهَا .

قَالَتِ الزَّوْجَةُ : مَا هٰذَا الَّذِى تَذْكُرُ يَا عُزَيْرُ . . . كَيْفَ تَخْرُجُ ؟! وَكَيْفَ يَخْرُجُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ؟ لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْحُرَّاسَ غَفَلُوا عَنَّا حَتَّى خَرَجَ كُلُّ إِسْرَائِيلِىٍّ فِى الْبِلَادِ لَعُرِفَ أَمْرُنَا فِيمَا بَعْدُ ، وَلَلَحِقَ بِنَا جَيْشُ الْمَلِكِ فِى الطَّرِيقِ ، وَلَأَنْزَلَ بِنَا مِنَ الْمَذَابِحِ أَضْعَافَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، فَكَيْفَ وَالْحُرَّاسُ لَا يَغْفُلُونَ عَنْ أَىِّ حَرَكَةٍ لَنَا ؟!!

قَالَ عُزَيْرٌ : هٰذَا كَلَامُكِ أَنْتِ . . . . أَمَّا كَلَامُ اللهِ فَغَيْرُ ذٰلِكَ . . . لَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَىَّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ . . . وَأَنَّ إِسْرَائِيلَ سَيَعُودُونَ إِلَى إِحْيَائِهَا وَعِمَارَتِهَا . . . . وَسَيَكُونُ مِنْ تَدْبِيرِ اللهِ مَا يَجْعَلُكُمْ تَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا فِى أَمْنٍ وَعَافِيَةٍ ، وَتَعُودُونَ إِلَى أَرْضِ الْآبَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ، وَتَعْمُرُونَهَا بِإِذْنِ اللهِ .

قَالَتِ الزَّوْجَةُ : يَا بُشْرَى ! هَلْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْكَ ، وَصِرْتَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِى إِسْرَائِيلَ ؟

قَالَ الْعُزَيْرُ : نَعَمْ . . . أُوحِيَ إِلَيَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ . . . وَقَدْ أَصْبَحْتُ أَجِدُ لِلتَّوْرَاةِ فِي قَلْبِي نُورًا جَدِيدًا وَحَلَاوَةً لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ . . وَحَيَاةً وَقُوَّةً وَجَيَشَانًا فِي وِجْدَانِي لَمْ أُحِسَّهُمَا مِنْ قَبْلُ . . . وَمَعَانِيَ نَاطِقَةً مُتَزَاحِمَةً فِي ذِهْنِي غَيْرَ الَّتِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ بِهَا . . .

قَالَتِ الزَّوْجَةُ : مَا أَحْوَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ تُقِيمَ بَيْنَهُمْ هُنَا ! تُعَلِّمُهُمْ مَا عَلَّمَكَ اللهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْحِكْمَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ بِالْخُرُوجِ لَنَا جَمِيعاً .

قَالَ الْعُزَيْرُ : أَتُرِيدِينَ بِهٰذَا أَنْ تَثْنِي عَزْمِي عَنِ الْخُرُوجِ ؟ ! هَيْهَاتَ . . . لَقَدْ أَمَرَ اللهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ إِنْفَاذِ مَا أَمَرَ بِهِ . . .

قَالَ وَلَدُهُ الْكَبِيرُ : إِنَّ خُرُوجَكَ وَحْدَكَ لَا مَعْنَى لَهُ أَلْبَتَّةَ . . فَإِنَّكَ لَنْ تَعْمُرَ الْأَرْضَ وَحْدَكَ . . وَلَنْ تُؤْنِسَ الْمَدِينَةَ وَحْدَكَ . . وَلَنْ تَجِدَ هُنَاكَ مَنْ تُعَلِّمُهُ التَّوْرَاةَ . . فَابْقَ مَعَنَا فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ لِأَنَّنَا جَمِيعاً سَنَتَعَلَّمُ التَّوْرَاةَ مِنْكَ .

قَالَ الْعُزَيْرُ : يَا بُنَيَّ إِنَّ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْسَعُ مِنْ حَدْسِ النُّفُوسِ ، وَحُسْبَانِ الْعُقُولِ ، وَكَلَامُكَ حَسَنٌ إِذَا وَزَنْتَ بِهِ كَلَامَ

الْبَشَرِ . أَمَّا كَلامُ اللهِ فَيَحْمِلُ مِنَ الْأَقْدَارِ مَالَا يَدُورُ بِخَلَدِ أَحَدٍ ، وَلَا يَظْهَرُ تَأْوِيلُهُ أَوْ تَأْوِيلُ بَعْضِهِ إِلَّا فِي مُقْتَبَلِ الْأَيَّامِ وَالسِّنِينَ . . . وَلَا بُدَّ يَا بُنَيَّ مِن إِنْفَاذِ مَشِيئَتِهِ . . . وَهِيَ خَيْرٌ . .

وَسَكَتَ قَلِيلاً وَقَالَ : عَمَّا قَلِيلٍ سَتَلْحَقُونَ بِي مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَا تَجْزَعُوا فَإِنَّهُ أَمْرُ اللهِ . . . وَسَنَلْتَقِي بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ . . . فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ فَاكْتُمُوا أَمْرِي ، وَلَا تَذْكُرُونِي لِأَحَدٍ . . فَإِذَا سَأَلَ عَنِّي سَائِلٌ فَقُولُوا لَهُ : خَرَجَ وَلَا نَدْرِي مَتَى يَعُودُ . . . !

وَهُنَا خَلَعَ خَاتَمَهُ ، وَأَعْطَاهُ زَوْجَتَهُ ، وَقَالَ لَهَا : خُذِي هَذَا لَعَلَّكِ تَذْكُرِينَنِي بِهِ . . . وَنَهَضَ قَائِماً فَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ وَقَامَتْ ، لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ غَايَتِهِ ، وَأَجْهَشَ أَبْنَاؤُهُ مَعَهَا وَأَجْهَشَتِ الْخَادِمُ . .

فَقَالَ : تَصَبَّرُوا فَإِنَّنَا سَنَلْتَقِي إِنْ شَاءَ اللهُ . . . هَكَذَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ . . كُفُّوا عَنِ الْبُكَاءِ ، وَاحْبِسُوا أَصْوَاتَكُمْ حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِنَا أَحَدٌ . . . وَالْآنَ أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ .

وَهُنَا قَالَتِ الزَّوْجَةُ — وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِهِ كَأَنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ

يَخْرُجَ — : وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِرُكُوبِكَ ؟

قَالَ : لَقَدِ اشْتَرَيْتُ حِمَارًا جَلْدًا قَوِيًّا مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ .

قَالَتْ : وَأَيْنَ هُوَ ؟

قَالَ : قَدْ تَرَكْتُهُ عِنْدَ صَفُورَا صَدِيقِي ، وَوَاعَدْتُهُ أَنْ يَلْقَانِي بِهِ اللَّيْلَةَ — هٰذَا الْوَقْتَ — خَارِجَ سُورِ الْمَدِينَةِ .

قَالَتْ : وَهَلْ عَلِمَ صَفُورَا بِنَبَإِ رِحْلَتِكَ ؟

قَالَ : نَعَمْ . عَلِمَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِنُبُوَّتِي وَسَيَكْتُمُ أَمْرِي كُلَّهُ . .

وَهُنَا انْثَنَى يُقَبِّلُ أَبْنَاءَهُ وَزَوْجَتَهُ ، وَحَيَّا الْخَادِمَ ، وَقَالَ : أَسْتَوْدِعُكُمُ اللّٰهَ . إِلَى الْمُلْتَقَى فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ... فَأَمْسَكَتْ بِهِ زَوْجَتُهُ وَقَدْ خَلَعَتْ خَاتَمَهَا ؛ وَقَالَتْ وَالدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا : وَخُذْ أَنْتَ أَيْضًا هٰذَا لَعَلَّكَ تَذْكُرُنَا بِهِ إِذَا طَالَ الْفِرَاقُ .

٤

بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ شَاقَّةٍ أَلْقَى عُزَيْرٌ نَفْسَهُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ . . . لَمْ يَجِدْ فِيهَا آثَارًا لِلْعُمْرَانِ . . . بَلْ وَجَدَ الْخَرَابَ جَاثِمًا عَلَيْهَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً . . . وَجَدَ أَشْجَارَ الْفَوَاكِهِ قَائِمَةً عَلَى غَيْرِ عِنَايَةٍ ، مُحَمَّلَةً بِالثِّمَارِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ . . . وَالْأَعْشَابَ وَبَعْضَ الزُّرُوعِ قَدْ تَفَرَّقَتْ فِي غَيْرِ انْتِظَامٍ تَكْسُو وَجْهَ الْأَرْضِ تَارَةً ، وَتَتَكَشَّفُ عَنْهُ أُخْرَى ، وَتَطُولُ فِي مَكَانٍ ، وَتَقْصُرُ فِي آخَرَ . . . وَسَمِعَ فِي الْأَجَمَاتِ الْبَعِيدَةِ عُوَاءَ الذِّئَابِ ، وَأَصْوَاتَ السِّبَاعِ ، وَلَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِإِنْسَانٍ قَطُّ ، سِوَى أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ مَدِينَةَ الْقُدْسِ وَجَدَ بِهَا آثَارَ مَذْبَحَةِ بُخْتُنَصَّرَ . . الْعِظَامُ بَالِيَةٌ مُبَعْثَرَةٌ . . وَالدِّمَاءُ عَلَى الْجُدْرَانِ جَافَّةٌ سَوْدَاءُ ، وَعَشَرَاتُ الْأُلُوفِ مِنَ الْجَمَاجِمِ الْآدَمِيَّةِ تُنْبِئُ عَنْ هَوْلِ مَا نَزَلَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ . . . وَرَأَى إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ الْبُيُوتَ مُهَدَّمَةً مَطْمُورَةً بِالْأَنْقَاضِ ، وَالْمَسَاجِدَ وَالْمَعَابِدَ قَدْ خَوَتْ عَلَى عُرُوشِهَا . . .

كَانَ عُزَيْرٌ صَبِيًّا لَمْ يَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ حِينَ نَزَلَتِ الْكَارِثَةُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنْ قَدْ نَزَلَتْ كَارِثَةٌ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّ مَوْجَتَهَا الْفَادِحَةَ الْعَاتِيَةَ قَدْ بَلَغَتْ هٰذَا الْحَدَّ الَّذِي رَآهُ . .

مَرَّ عُزَيْرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَذِهْنُهُ مَشْغُولٌ بِمَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا ، يَتَمَثَّلُ الْمَعْرَكَةَ الرَّهِيبَةَ فَيَحْزَنُ ، وَيَتَسَمَّعُ إِلَى الصَّمْتِ الْعَمِيقِ عَلَيْهَا فَيَسْتَوْحِشُ . . . وَيَتَسَاءَلُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ : أَتَصِيرُ هٰذِهِ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ مَعْمُورَةَ الْأَسْوَاقِ ، وَالنَّدَوَاتِ ، وَالْمَجَالِسِ ، آهِلَةً بِالسُّكَّانِ وَالْبُيُوتِ ؟

لَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ اللهُ أَنَّهُ سَيُعِيدُ إِلَيْهَا الْحَيَاةَ ، فَتَدِبُّ فِيهَا الْحَرَكَةُ ، وَتَقُومُ التِّجَارَةُ ، وَتَنْشَطُ الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ . . . (أَنَّى يُحْيِي هٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟ !

اسْتَوْحَشَ عُزَيْرٌ مِنْ صَمْتِ الْمَدِينَةِ وَمَا يَرَاهُ عَلَيْهَا مِنَ الدَّمَارِ ، وَآثَرَ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَغَارَةً فِي أَحَدِ الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِالْقُدْسِ لِيُقِيمَ فِيهَا . . . وَفِي طَرِيقِهِ إِلَيْهَا صَنَعَ لِنَفْسِهِ سَلَّةً مَلَأَهَا

عِنَباً وَتِيناً ، وَعَصَرَ بَعْضَ الْعِنَبِ ، وَجَعَلَهُ مَعَهُ فِى إِنَاءٍ مِنَ الْجِلْدِ لِيَشْرَبَهُ .

كانَ الْوَقْتُ ضُحًى عِنْدَمَا دَخَلَ عُزَيْرٌ مَغَارَتَهُ الْوَاسِعَةَ الْعَتِيدَةَ فَرَبَطَ بِهَا حِمَارَهُ ، وَوَضَعَ سَلَّتَهُ وَشَرَابَهُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ لِيُرِيحَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ . . . وَهُوَ يُفَكِّرُ : كَيْفَ تَعُودُ الْحَيَاةُ ثَانِيَةً إِلَى هٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، وَإِلَى سَائِرِ قُرَى إِسْرَائِيلَ ؟ وَأَسْلَمَهُ التَّعَبُ وَالتَّسَاؤُلُ إِلَى نَوْمٍ عَمِيقٍ ثَقِيلٍ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَبَضَ اللهُ إِلَيْهِ رُوحَهُ ، وَلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِشَىْءٍ مِمَّا حَوَالَيْهِ . . .

مَضَى عَلَى خُرُوجِ عُزَيْرٍ مِنْ بَابِلَ عَشَرَةُ أَعْوَامٍ وَزَوْجُهُ وَبَنُوهُ يَنْتَظِرُونَ قَدَرَ اللهِ الَّذِى يُتِيحُ لَهُمُ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ فِى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَلٰـكِنَّ انْتِظَارَهُمْ لَمْ يَأْتِ بِشَىْءٍ، وَمَضَتْ عَشَرَةٌ ثَانِيَةٌ وَثَالِثَةٌ ... عَلَى غَيْرِ جَدْوَى . وَمَضَتْ عَشَرَةٌ رَابِعَةٌ، وَنَسِيَ النَّاسُ عُزَيْرًا ، وَيَئِسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ، وَنَشَأَ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ جِيلٌ جَدِيدٌ ، وَفَنِىَ الْجِيلُ الَّذِى قَبْلَهُ ، وَتَغَيَّرَ الْـكَثِيرُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ . . . وَنَشَأَتْ فِيهِمْ فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ بَارِعَةٌ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الذَّكَاءِ لَمْ يَـكُنْ بَيْنَ نِسَاءِ عَصْرِهَا مَنْ يُضَاهِيهَا ذَكَاءً وَلَا جَمَالًا ، فَعَلِمَ بِهَا مَلِكُ بَابِلَ فَتَزَوَّجَهَا وَهَامَ بِهَا ، وَحَلَّتْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً كَرِيمَةً ، وَرُزِقَتْ بِمَوْلُودٍ جَمِيلٍ ، فَزَادَتْ مَنْزِلَتُهَا لَدَيْهِ ، وَتَلَطَّفَتْ لَدَى الْمَلِكِ حَتَّى أَمَرَ بِإِحْسَانِ مُعَامَلَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ . . . وَسَعَتْ — حِينَ كَبِرَ ابْنُهَا — حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ الْأَحْبَارِ الْقَصْرَ ، وَأَخَذُوا يُعَلِّمُونَ ابْنَهَا التَّوْرَاةَ . . وَأَحَسَّ

بَنُو إِسْرَائِيل بَرَكَةَ هٰذَا الزَّوَاجِ ؛ إِذْ لَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ مَا ظَفِرُوا مِنَ الْإِكْرَامِ وَالْمُعَامَلَةِ الْحَسَنَةِ ، بَلْ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْ نُفُوذِ الْقَصْرِ فِي أَيْدِي الْأَذْكِيَاءِ مِنْ أَحْبَارِهِمْ ، حَتَّى كَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْوُزَرَاءِ أَوِ الْمُسْتَشَارِينَ لِلْمَلِكِ . . . .

وَمَاتَ الْمَلِكُ فَخَلَفَهُ ابْنُهُ الَّذِي تَعَلَّمَ التَّوْرَاةَ ، وَأَحَبَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ لِأَنَّهُمْ أَخْوَالُه . . . وَأَقْبَلَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ تُحَدِّثُه أَنَّ أَرْضَ إِسْرَائِيلَ خَرَابٌ تَسْرَحُ فِيهَا الذِّئَابُ وَالسِّبَاعُ ، وَتَلَطَّفَتْ إِلَيْهِ لِكَيْ يَسْمَحَ لَهُمْ بِالْخُرُوجِ لِعِمَارَةِ بِلَادِهِمْ ...

وَبَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِينَ سَنَةً عَلَى خُرُوجِ عُزَيْرٍ ، كَانَ مُنَادِي الْمَلِكِ يُنَادِي فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى وَطَنِهِ فَلَهُ أَنْ يَخْرُجَ . . . .

فَخَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُهَاجِرِينَ إِلَى أَوْطَانِهِمْ ، وَهُنَاكَ عَمِلُوا بِجِدٍّ : فَغَرَسُوا ، وَزَرَعُوا ، وَعَادَتِ الْحَيَاةُ بِالتَّدْرِيجِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَسَائِرِ الْقُرَى ، وَاسْتَأْنَفَتِ التِّجَارَةُ بَعْدَ قَلِيلٍ سَيْرَهَا ، وَمَعَهَا الصِّنَاعَةُ ، وَأَخَذَ الْقَوْمُ يَجِدُّونَ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْمَسَاكِنِ .

وَلَمْ تَمْضِ عَلَى عَوْدَتِهِمْ ثَلاثُونَ سَنَةً ، حَتَّى عَادَ الْعُمْرَانُ خِلَالَهَا إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ وَقُرَاهَا وَمُدُنِهَا أَتَمَّ مَا يَكُونُ ، كَأَنْ لَمْ يَمُرَّ بِهَا كَارِثَةٌ قَطُّ . . .

أَمَّا أَهْلُ عُزَيْرٍ فَقَدْ بَحَثُوا عَنْهُ أَوَّلَ مَجِيئِهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِالْمَدِينَةِ ، فَلَمْ يَقِفُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ . . . وَأَرْسَلُوا إِلَى سَائِرِ الْمُدُنِ وَالْقُرَى ، وَسَأَلُوا عَنْهُ كُلَّ قَادِمٍ ، وَأَوْصَوْا كُلَّ مُسَافِرٍ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ ، فَلَمْ يَأْتِ ذَٰلِكَ بِشَيْءٍ . . .

وَصَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الْمَغَارَةِ ، وَصَرَفَ عَنْهَا سِوَاهُمْ لِمَا يُرِيدُ مِنْ إِظْهَارِ آيَتِهِ ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ عَلَى وَفَاةِ عُزَيْرٍ مِائَةُ عَامٍ ، رَدَّ الْحَيَاةَ إِلَيْهِ فَقَامَ لِيَجِدَ سَلَّةَ الْفَاكِهَةِ ، وَإِنَاءَ الْعَصِيرِ إِلَى جَانِبِهِ ، فَسَمِعَ مُنَادِيًا يُنَادِيهِ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يَرَى شَخْصَهُ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ فَأَجَابَ : لَبِثْتُ يَوْمًا .

وَلَكِنَّهُ نَظَرَ فَوَجَدَ أَشِعَّةَ الأَصِيلِ تَكْسُو أَطْرَافَ الأَشْجَارِ ، وَأَنَّ الْيَوْمَ لَمْ يَنْتَهِ فَاسْتَدْرَكَ قَائِلًا : أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

فَقَالَ الْمُنَادِي : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .

وَهُنَا فَزِعَ عُزَيْرٌ ! . . . وَقَالَ فِى نَفْسِهِ مُتَعَجِّباً : مِائَةَ عَامٍ ! ! إِنَّ الْعِنَبَ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَكَذَلِكَ التِّينُ . . . وَالْعَصِيرُ فِى الْإِنَاءِ لَمْ يَتَبَخَّرْ، وَلَمْ يَتَجَمَّدْ ، وَلَمْ يُدْرِكْهُ أَىُّ تَحَوُّلٍ لَا فِى لَوْنِهِ وَلَا فِى طَعْمِهِ وَلَا فِى رَائِحَتِهِ ! ! !

فَنَادَاهُ الْمُنَادِى الْخَفِىُّ : وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ .

وَلَمْ يَكُنْ قَدْ فَطِنَ إِلَى الْحِمَارِ ، فَالْتَفَتَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ حَيْثُ رَبَطَهُ عِنْدَ الضُّحَى فِى جَانِبِ الْمَغَارَةِ فَرَاعَهُ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ سِوَى عِظَامٍ نَخِرَةٍ بَالِيَةٍ هِىَ عِظَامُ الْحِمَارِ . . .

فَوَقَفَ حَائِرًا دَهِشاً يُقَلِّبُ نَظَرَهُ بَيْنَ الْفَاكِهَةِ الَّتِى لَمْ تَتَغَيَّرْ . . . وَبَيْنَ الْحِمَارِ الَّذِى صَارَ عِظَامًا نَخِرَةً بَالِيَةً لِطُولِ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ عَشَرَاتِ الْأَعْوَامِ ، وَأَخَذَ يَقُولُ فِى نَفْسِهِ : حَقًّا إِنَّهَا مِائَةُ عَامٍ . لَقَدْ فَنِىَ جِلْدُ الْحِمَارِ ، وَلَحْمُهُ ، وَشَعْرُهُ ، وَتَفَرَّقَتْ عِظَامُهُ ، وَهَذَا رَأْسُهُ كَالْقُلَّةِ الْفَارِغَةِ لَيْسَ بِهِ سِوَى تِلْكَ الْفَجَوَاتِ الَّتِى كَانَتْ مَوَاضِعَ لِلْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْفَمِ . . وَلَقَدْ بَلِيَتْ حَوَافِرُهُ ، وَزَالَتْ . . وَلَكِنْ كَيْفَ تَغَيَّرَ كُلُّ



العزير بعد أن بعثه الله وبجانبه حماره وسلة الفاكهة وإناء العصير

شَيْءٍ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي التِّينِ وَلَا فِي الْعِنَبِ وَلَا فِي الْعَصِيرِ !!! ؟ إِنَّهَا بِلَا شَكٍّ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ . . .

وَأَخَذَ يُكَرِّرُ فِي نَفْسِهِ : إِنَّهَا آيَةٌ . . ! إِنَّهَا آيَةٌ . . ! وَيَتَسَاءَلُ: تُرَى مَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟! وَإِذَا بِالنِّدَاءِ الْقُدْسِيِّ يُنَادِيهِ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ : (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ) .

. . . وَهُنَا يَنْتَقِلُ تَفْكِيرُ الْعُزَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ . . . إِذَا كَانَ فِي الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ وَالْحِمَارِ آيَةٌ تَدْعُو لِلْعَجَبِ فَسَيَصِيرُ هُوَ نَفْسُهُ آيَةً لِلنَّاسِ تَدْعُو إِلَى عَجَبِهِمْ وَدَهْشَتِهِمْ . . . تُرَى مَاذَا تَكُونُ تِلْكَ الْآيَةُ ؟ ! وَهُنَا يُنَادِيهِ النِّدَاءُ الْخَفِيُّ لِيَصْرِفَهُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي نَفْسِهِ ، وَيَلْفِتَهُ إِلَى التَّأَمُّلِ فِيمَا أَمَامَهُ : (انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً) . . !

فَنَظَرَ الْعُزَيْرُ فَإِذَا عِظَامُ الْحِمَارِ تَتَحَرَّكُ قَائِمَةً بِقُدْرَةِ اللهِ ، كُلُّ عُضْوٍ فِي مَكَانِهِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْجِسْمِ ، يَنْشَأُ اللَّحْمُ فَوْقَ تِلْكَ الْعِظَامِ حَتَّى يَعُودَ هَذَا الْحَيَوَانُ خَلْقاً سَوِيًّا كَمَا كَانَ . . .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ بِعَيْنِهِ قَالَ فِي تَسْلِيمٍ بِقُدْرَةِ اللهِ وَيَقِينٍ

مُطْمَئِنٌّ : (أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . . . !

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ لِقُدْرَةِ اللهِ كَيْفَ تُعِيدُ الْحَيَاةَ إِلَى مَدِينَةِ الْقُدْسِ ، فَمَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَدْعَى لِلْعَجَبِ . . .

وَأَخْرَجَهُ مِنْ تَفْكِيرِهِ ذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ أَصْوَاتَ بَعْضِ النَّاسِ تَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ وَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي الطَّرِيقِ الْعَامِّ ، فَأَسْرَعَ إِلَى خَارِجِ الْمَغَارَةِ ، فَرَآهُمْ رَائِحِينَ نَحْوَ الْقُدْسِ ، وَرَأَى فِي الْمَدِينَةِ عَلَى بُعْدٍ أَنْوَارَ بَعْضِ الْمَصَابِيحِ تَضْطَرِبُ فِي طَلَائِعِ الظَّلَامِ الَّتِي أَقْبَلَتْ مَعَ الْغُرُوبِ . . . فَعَلِمَ أَنَّ الْعُمْرَانَ قَدْ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَفَرِحَ وَأَسْرَعَ نَحْوَهَا . . .

دَخَلَ الْعُزَيْرُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا مَبَانٍ جَدِيدَةٌ ، وَخِطَطٌ غَيْرُ الَّتِي كَانَ يَعْهَدُهَا ، وَأَخَذَ يَتَنَقَّلُ فِي طُرُقَاتِهَا وَشَوَارِعِهَا بَاحِثًا عَنْ مَنْزِلِهِ الْقَدِيمِ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ . . . سَأَلَ بَعْضَ الْمَارَّةِ : أَيْنَ مَحَلَّةُ الْعُزَيْرِ ؟ فَأَجَابَ: لَا نَعْرِفُ لِلْعُزَيْرِ مَحَلَّةً . . . وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى هَذِهِ الدُّورِ الَّتِي تَبْدُو عِنْدَ مُنْعَطَفِ الشَّارِعِ . . . إِنَّهَا دُورُ

أَبْنَاءِ الْعُزَيْرِ. وَقَفَ الْعُزَيْرُ بِأَوَّلِ بَابٍ وَطَرَقَهُ فَقِيلَ: مَنْ بِالْبَابِ؟ فَقَالَ: أَنَا الْعُزَيْرُ! وَوَجَمَ مَنْ فِي الدَّارِ لِهَذَا الطَّارِقِ الْعَجِيبِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ الْعُزَيْرُ ...

وَخَرَجَ شَابٌّ جَلْدٌ، وَفَتَحَ الْبَابَ وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ؟

قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا أَحَدَ مَسَاكِنِ أَبْنَاءِ الْعُزَيْرِ ..؟

قَالَ الشَّابُّ: أَنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ... حَفِيدُ أَحَدِ أَبْنَائِهِ.

قَالَ الْعُزَيْرُ فِي نَفْسِهِ: مَا أَعْظَمَ مَا فَعَلَتْ مِائَةُ الْعَامِ مِنْ أَحْدَاثٍ!!! أَنَا الآن أمام أَحَد أَحْفَادِ أَبْنَائِي ... وَاسْتَرْسَلَ فِي هَذَا التَّأَمُّلِ حَتَّى قَالَ لَهُ الشَّابُّ: وَمَنْ أَنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ؟

قَالَ: أَنَا الْعُزَيْرُ.

قَالَ الشَّابُّ: أَمَا رَأَيْتَ يَا سَيِّدِي أَهْلَ بَيْتٍ جَدِيرِينَ بِالسُّخْرِيَةِ سِوَانَا فَجِئْتَ تَعْبَثُ بِنَا؟!

قَالَ الْعُزَيْرُ: يَاوَلَدِي، لَسْتُ أَسْخَرُ وَلَا أَعْبَثُ، بَلْ أَنَا الْعُزَيْرُ.

قَالَ الشَّابُّ: إِنَّنَا فَقَدْنَا الْعُزَيْرَ مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ عَلَى مَا سَمِعْتُ مِنْ أَبِي، وَكَانَتْ سِنُّهُ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَوْ كَانَ حَيًّا

لَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ سِنُّهُ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَأَنْتَ الآنَ لَا تَعْدُو الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِكَ ، أَىْ أَنَّكَ أَصْغَرُ مِنْ أَحْفَادِهِ ، فَكَيْفَ يَتَأَتَّى أَنْ تَكُونَ الْعُزَيْرَ ؟!

وَتَجَمَّعَ بَعْضُ الْمَارَّةِ عَلَى هٰذَا الْحِوَارِ الْعَجِيبِ . . . . .

وَسَمِعَهُ مَنْ بِدَاخِلِ الدَّارِ . . . .

وَأَحَاطَ الْجَمِيعُ بِالْعُزَيْرِ يَسْأَلُونَهُ وَهُوَ يُجِيبُ . . . لَقَدْ أَمَاتَنِى اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَنِى!! أَلَيْسَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ؟!

وَسَمِعَ صَوْتًا مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ يَقُولُ : أَدْخِلُوهُ فَإِنَّ لِى فِى الْعُزَيْرِ عَلَامَةً ، فَإِنْ كَانَ هُوَ عَرَفْتُهُ بِهَا . . . . .

وَدَخَلَ الْعُزَيْرُ فَإِذَا بِهِ أَمَامَ عَجُوزٍ عَمْيَاءَ مُقْعَدَةٍ . . . .

فَقَالَتْ لَهُ : يَا هٰذَا ، لَقَدْ كَانَ لِلْعُزَيْرِ خَادِمٌ ، أَتَعْرِفُ اسْمَهَا ؟

قَالَ الْعُزَيْرُ : نَعَمْ اسْمُهَا أَشْتَرُ ، وَقَدْ تَرَكْتُهَا وَسِنُّهَا عِشْرُونَ عَامًا ، فَإِذَا كَانَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَسِنُّهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ عَامًا . .

قَالَتِ الْعَجُوزُ : أَنَا أَشْتَرُ ، وَلٰكِنْ لِى فِى الْعُزَيْرِ عَلَامَةٌ ، لَقَدْ كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ فِينَا لَا يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا اسْتَجَابَ

لَهُ . . . فَإِنْ كُنْتَ الْعُزَيْرَ فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي ، وَأَنْ يَشْفِيَ سَاقَيَّ، فَقَدْ صِرْتُ مُقْعَدَةً لا أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ عَلَيْهِمَا . .

فَدَعَا الْعُزَيْرُ رَبَّهُ ، وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى عَيْنَيْهَا ، وَأَخَذَ بِيَدِهَا لِيُنْهِضَهَا فَإِذَا بِهَا تَقِفُ عَلَى سَاقَيْهَا ، وَتُبْصِرُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ الْإِبْصَارُ . . . وَتَأَمَّلَتْ فِي وَجْهِهِ وَقَالَتْ : أَشْهَدُ أَنَّكَ عُزَيْرٌ ، إِنِّي أَرَاكَ الْآنَ كَلَيْلَةِ تَرَكْتَنَا . . .

وَجَاءَتْ عَجُوزٌ أُخْرَى يَقْرُبُ عُمْرُهَا مِنْ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ عَامًا وَقَالَتْ : وَأَنَا زَوْجَةُ الْعُزَيْرِ ، وَلَنْ أَسْأَلَكَ عَنِ اسْمِي ، وَلٰكِنَّا تَبَادَلْنَا أَمَانَةً لَيْلَةَ الْفِرَاقِ يَذْكُرُ بِهَا كُلٌّ مِنَّا صَاحِبَهُ ، فَإِذَا كُنْتَ الْعُزَيْرَ حَقًّا فَاذْكُرْ مَاذَا تَبَادَلْنَا بَيْنَنَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ؟

قَالَ الْعُزَيْرُ : نَعَمْ . . . أَعْطَيْتُكِ خَاتَمِي وَقُلْتُ لَكِ : لَعَلَّكِ تَذْكُرِينَنِي بِهِ . . وَأَعْطَيْتِنِي خَاتَمَكِ وَقُلْتِ لِي: لَعَلَّكَ تَذْكُرُنِي بِهِ . . . وَهَاهُوَ ذَا خَاتَمُكِ، وَخَلَعَهُ مِنْ إِصْبَعِهِ ، وَقَدَّمَهُ لَهَا . . . فَفَرِحَتِ الْعَجُوزُ ، وَقَالَتْ: وَهَاهُوَ ذَا خَاتَمُكَ يَا عُزَيْرُ، وَطَالَمَا ذَكَرْتُكَ بِهِ .

وَتَجَمَّعَ النَّاسُ عَلَى هَـذَا الْحَدَثِ الْعَجِيبِ ، وَضَاقَتْ بِهِمُ الدَّارُ ، فَوَقَفُوا أَمَامَهَا يَعْجَبُونَ لِهَـذَا الْأَمْرِ . .

وَبَلَغَ النَّبَأُ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي نَادِيهِمْ وَبَيْنَهُمُ الِابْنُ الْأَكْبَرُ لِعُزَيْرٍ وَقَدْ بَلَغَ مِائَةً وَعِشْرِينَ عَاماً ، فَانْفَضَّ الْجَمِيعُ إِلَى مَحَلَّةِ آلِ الْعُزَيْرِ . فَقَالَ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ : إِنَّ لِي فِي أَبِي عَلَامَةً: شَامَةً سَوْدَاءَ مِثْلَ الْهِلَالِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَكَشَفَ لَهُ عَنْ كَتِفَيْهِ ، فَوَجَدَهَا ، فَقَالَ الِابْنُ : أَشْهَدُ أَنَّكَ أَبِي .

فَقَالَ شُيُوخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ : إِنَّ لَنَا فِي الْعُزَيْرِ عَلَامَةً . لَمْ يَكُنْ فِينَا أَحَدٌ يَحْفَظُ التَّوْرَاةَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ سِوَاهُ .

فَقَالَ الْعُزَيْرُ : وَأَنَا أَحْفَظُ التَّوْرَاةَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ . . .

فَجَاءَ الْقَوْمُ بِنُسْخَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ قَدِيمَةٍ كَانَ بَعْضُهُمْ خَبَأَهَا تَحْتَ الْأَرْضِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَحْرِقَهَا بُخْتَنَصَّرُ ، وَقَالُوا لَهُ : اقْرَأْ وَنَحْنُ نُرَاجِعُ عَلَيْكَ . . .

فَشَرَعَ الْعُزَيْرُ يَقْرَأُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وَهُمْ يُرَاجِعُونَ عَلَيْهِ فِي صُحُفِ التَّوْرَاةِ حَتَّى انْتَهَى مِنْهَا دُونَ أَنْ يُخْطِئَ فِي حَرْفٍ

وَاحِدٍ، أَوْ يَتَرَدَّدَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . . .

فَفَرِحَ الْجَمِيعُ وَقَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ عُزَيْرٌ . . . .

وَكَانَ مِنْ آيَةِ اللهِ فِي الْعُزَيْرِ أَنَّهُ يَجْلِسُ فِي الْمَجْلِسِ وَفِيهِ بَنُوهُ وَبَنُو بَنِيهِ وَهُمْ شُيُوخٌ شِيبٌ قَدْ قَوَّسَتِ السِّنُونَ ظُهُورَهُمْ وَهُوَ فِي سِنِّ الأَرْبَعِينَ أَسْوَدُ الشَّعْرِ ، مُنْتَصِبُ الْقَامَةِ ، قَوِيُّ الْبِنْيَةِ ؛ فَصَدَقَ بِذَلِكَ قَوْلُ اللهِ لَهُ : (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ . .)

وَقَدْ أَوْجَزَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قِصَّتَهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ؛ قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟! فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ؛ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . . .)

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)

مجموعة القصص الدينية

تتضمن هذه المجموعة قصصاً شائقة ، فيها تنوير للقلب ، ودعوة إلى الحق ، وإيمان بالمبدأ ، واتصال بالله . جرت حوادثها مع رجال غلبت عليهم الروحانية ، وأعلنوا الحق غير مبالين أن يصيبهم ما يصيبهم ، ولو كان فيه تلف نفوسهم : فهي الشجاعة في إبداء الرأي ، ونصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم ، وهي ثورة على الفساد ، ومحاربة الطغيان ! ثم انتصار الحق والفضيلة والخلق الكريم .

١ – قابيل وهابيل	١١ – عام الفيل
٢ – سبأ	١٢ – زمزم
٣ – ذو القرنين	١٣ – مؤمن آل فرعون
٤ – قارون	١٤ – طالوت وجالوت
٥ – موسى والخضر	١٥ – العزير وحماره
٦ – بقرة بني إسرائيل	١٦ – شكر النعمة
٧ – أصحاب القرية	١٧ – الإسراء والمعراج
٨ – أهل الكهف	١٨ – سدرة المنتهى
٩ – أصحاب الأخدود	١٩ – بائع الأمراء
١٠ – أصحاب الفيل	٢٠ – جريج العابد

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة